قصة آية

35

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى





وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ

قالَ (تعالَى) :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ١٤٤]

عِنْدَمَا كَانَتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ ، أَرادَ الْمُشرِكونَ أَنْ يُدخِلوا الرُّعْبَ على قُلوبِ الْمُسلمينَ ، ففكَّروا في حِيلَةٍ شَيْطانيَّةٍ تُساعِدُهُمْ على ذلكَ .

كـانَ الْـمُـشْـركـونَ يعْلَمـونَ مَـدَى حبِّ الْـمُـسـلمينَ لِرَسـولِ اللَّهِ ﷺ فـأَرادوا أَنْ يَفْجَعوهمْ فِيـه ، كما كـانوا يعْلَمـونَ أَنَّه يُوجَدُ في صُفوفِ الْمُسلمينَ بعْضُ ضِعافِ الإيمانِ الذين يتأَثَّرون بأقلِّ دِعايةٍ .

مالَ أحدُ الْمُشركينَ على أَخيه وقالَ له :

ـ يجبُ أنْ نَحْسِمَ هذه الْمَعركَةَ في أَسْرَعِ وقْتٍ مُمكنٍ .

فأجابهُ في حَمَاسةٍ :

ـ وكَيْفَ ذلكَ ؟

فقالَ في غَيْظٍ :

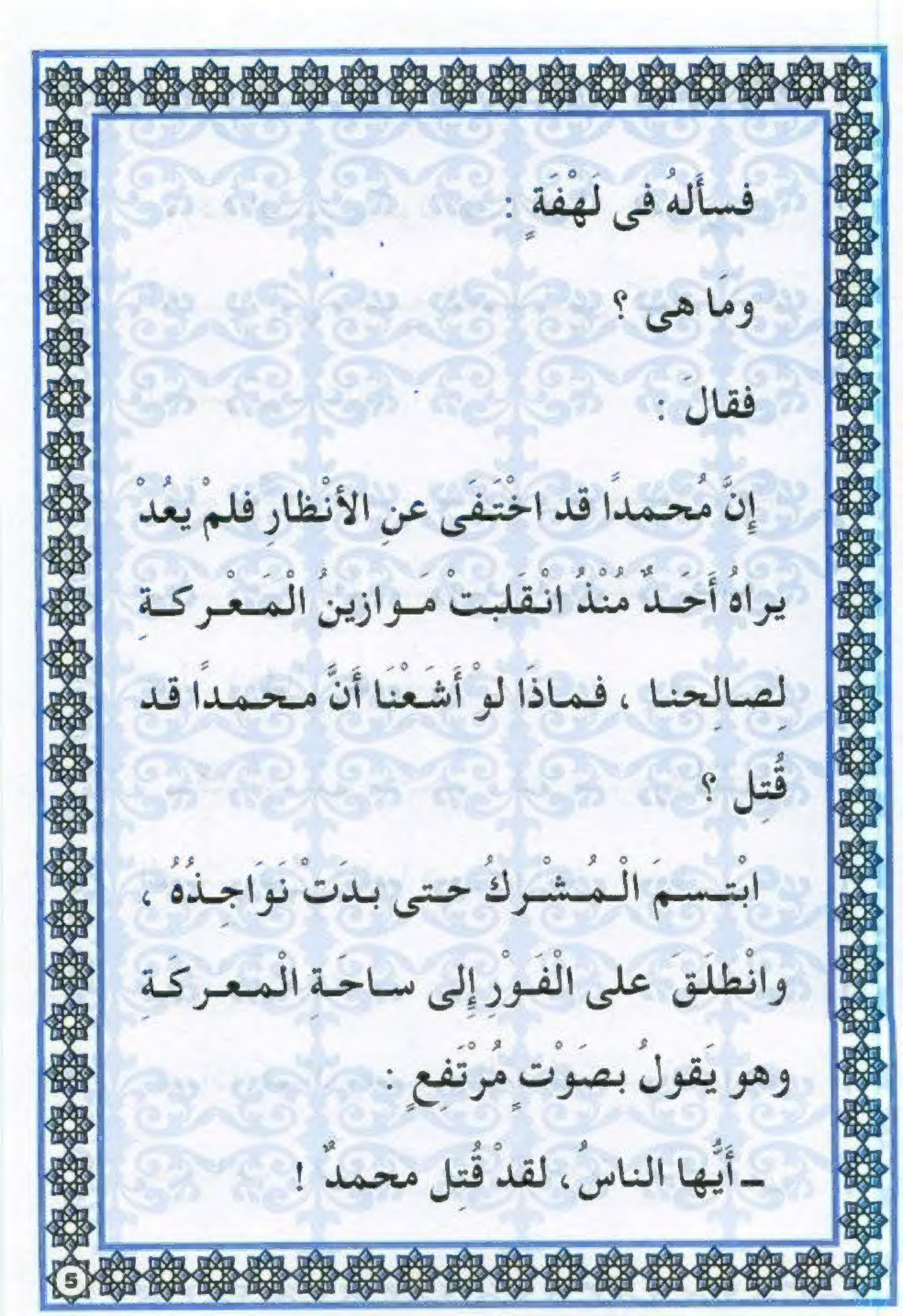
ـ نقْتلُ مُحمَّدَ بنَ عبدِ اللَّهِ وبذلكَ ينْسَحِبُ الْمُسلمونَ من الْمَعركةِ ، لأَنَّ نَبِيَّهُمْ وقائِدَهمْ قد قُتِلَ .

فقالَ :

ـ لقدْ حاولْنا أَنْ نَقْتُلَ مُحمداً أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ولمْ نُفْلِحْ ، وأَشْهدُ أَنَّنَا لا نَسْتطيعُ قتْلَهُ لأَنَّ هُناكَ مَنْ يَحْمِيه ، كما أنَّ أَصْحابَهُ يُفْدُونه بِأرواحِهِمْ كما تَرَى .

ثم أَضافَ :

ـ ولكنْ عِنْدى فكْرَةٌ ، سَتُحَقِّقُ ما نَصْبُو إِليه .



فسأَلهُ فى لَهْفَةٍ :

ومَا هى ؟

فقالَ :

إنَّ مُحمداً قد اخْتَفَى عنِ الأنْظارِ فلمْ يعُدْ يراهُ أَحَدٌ مُنْذُ انْقَلبتْ مَوازينُ الْمَعْركَةِ لصالِحنا ، فماذَا لوْ أَشَعْنَا أَنَّ محمداً قد قُتِل ؟

ابْتسَمَ الْمُشْركُ حتى بدَتْ نَوَاجِذُهُ ، وانْطلَقَ على الْفَوْرِ إِلى ساحَةِ الْمعركَةِ وهو يَقولُ بصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ :

ـ أَيُّها الناسُ ، لقدْ قُتِل محمدٌ !

ورَدَّدَ الْـمُـشْرِكونَ مَعَـهُ قَوْلَهُ حتى وصَلَ الْخَـبَـرُ إِلى سَـمْعِ الْمـسلمين كـمـا أَرادَ الْـمُشْرِكونَ ذلكَ .

ولَمْ يَكَدِ الْـمُـسلمـون يَسْـمَـعونَ هذا الْـخَبَرِ حتى انْقَسَمُـواعلى أَنْفُسِهِمْ انْقِساماً خَطيراً فقالَ بَعْضُهُمْ :

ـ قَدْ أُصيبَ مـحمدٌ ، فلا ضَرورَةَ لِقِتالِ الْـمُشْرِكينَ، فإِنَّما هُمْ إِخْواننا وأَهْلُنا .

وقالَ آخَرونَ :

ـ إِذا كـانَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ مـاتَ وهوَ يُجَـاهِدُ ، فـأَوْلَى بنا أَنْ نموتَ مِـثْلَهُ في

سَاحَةَ الْمَعْرَكَةِ حتى نلْحَقَ به ، فواللَّهِ مايَطِيبُ لنا أَنْ نَعيشَ بعْدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ .

وهَرَبَ الْمُنافِقونَ وضِعافُ الإيمانِ من الْمَعركةِ بِمجرَّدِ أَنْ سَمِعوا هذا الْخَبرَ وقالوا :

ـ لماذا نَبْقَى نُقاتِلُ الْمُشركين إذا كانَ الرسولُ قدْ قُتِلَ ؟

وتصَدَّى أَنَسُ بنُ النَّضْرِ وبعْضُ الصحابَةِ للمنافِقينَ وضِعافِ الإيمانِ وحَاولوا تَثْبِيتَهُمْ وإِبْقاءَهمْ في ساحَةِ الْمَعركةِ فقالوا :

ـ كيْفَ تُوَلُّونَ أدْبارَكُمْ لِلمشركينَ ؟! هل تُحارِبونَ مِن أَجْلِ مُحمدٍ أَوْ مِن أَجْلِ الدِّفاعِ

عنْ دينِ اللَّهِ والانتصارِ للْمَبَادئِ ؟

فأَجابوا :

ـ فما مُقامُنَا هُنا إِذا كانَ الرسُولُ قَدْ قُتِلَ ؟

فبكَى أَنَس بنُ النَّضْرِ وقالَ فى تأَثُّرٍ :

ـ بلْ ما فائدَةُ حَياتكم بعْدَ رسول اللَّه ﷺ .

فانْصَرَفوا جَميعًا فى غَيْرِ مُبالاَةٍ دُونَ أَنْ يسْتَجيبوا لِنُصْحِه . فقالَ أَنَس :

ـ اللَّهُمَّ إِنِى أَبْرأُ إِليكَ مِمَّا يقولُ هَؤُلاءِ ، وأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا يقولُ هؤُلاءِ .

ثمَّ انْطَلَقَ شاهِراً سيْفَهُ وهوَ يقولُ :

ـ إِيهًا رِيحُ الْجَنَّةِ !

وَمَضَى يقاتِلُ فى استِبْسالٍ حتى اسْتُشْهِدَ وفيهِ أَكْثَرُ من ثَمانين طَعْنَةً .

ولَمَّا ازْدادَ انْقِسامُ الْمُسلمينَ على أَنْفُسِهِمْ أَرادَ اللَّهُ (تعالَى) أَنْ يُثَبِّتَ قُلوبَهمْ فأَنزلَ عليهِمْ قوْلَه (تعالَى) :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾

وثَبتَ الْمُسلمونَ فلمْ يَضْعُفوا ، والْتَفُّوا حوْلَ الرسولِ ﷺ فَرِحينَ بِنَجاتِه وراحُوا يُفْدُونَه بأَرْواحِهِمْ .

يقولُ الصَّحابىُّ الْجَليلُ كعْبُ بنُ مالكٍ :

ـ لَمَّا أَشاعَ الكُفَّارُ أن الرَّسولَ ﷺ قدْ قُتِلَ وحَدث ما حَدثَ وانْهزَمَ جماعَةٌ مِنَ الْمُسلمينَ ، كنْتُ أَوَّلَ من عرفَ رسولَ اللهِ ﷺ ، رأَيْتُ عَيْنَيْهِ من تحْت دِرعِهِ تُزْهِرانِ !

ويُضيفُ كعْبُ بنُ مالكٍ .

فناديْتُ بأَعْلى صوْتي :

هذا رسولُ اللَّهِ ﷺ .

فأَشارَ إِلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ أَنْ يَسْكُتَ حتى لا يَهْتَدِي الْمُشركونَ إِليهِ فسكَتَ ، ولكنَّ الْمُسلمينَ جَميعاً علِموا بأَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ حَيٌّ لَم يمُتْ فَحمِدوا اللَّهَ وشَكَروهُ على ذلكَ .

وفى هَذهِ الآيةِ عتابٌ من اللَّهِ (تعالَى) للْمُنهزمينَ الذينَ وَلَّوُا الأَدبارَ ، حيثُ لمْ يكنْ لهمْ أَنْ يفعَلوا ذلكَ حتى وإنْ قُتِلَ الرسولُ ﷺ أَوْ ماتَ .

إنَّ اللَّهَ (تعالَى) أرادَ أَنْ يُعَلِّمَ الْمُسلمينَ منْ خِلالِ هذه الآيةِ أَنَّ الدَّعْوَةَ إلى اللَّهِ ليْسَتْ دعْوَةَ أشْخاصٍ ، ولكِنَّها دعْوَةٌ ثابتَةٌ لها قِيَمُها ومَبادِئُها ، لا تَموتُ إذا ماتَ الشَّخصُ ولا تتأَثَّرُ إذا تأثَّر، ولكنها كَلِمةٌ باقِيَةٌ ، أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السَّماءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .

ولذلكَ عِنْدمـا مـاتَ الرَّسـولُ ﷺ كـادَ الصَّحابَةُ يُفْتَنُونَ وقالَ بعْضُهُم :

ـ لمْ يَمُتِ النبيُّ ﷺ ، إنَّمَـا هو بَعْضُ ما كَانَ يأْخُذُه عِنْدَ الْوَحْى .

وذهَبَ الناسُ إلى أَبِى بَكْرٍ وقالُوا لهُ :

ـ يا أَبَا بَكْرٍ تدَارَكِ النَّاسَ قبْلَ أَنْ يَخْتَلِفوا .

فـأَسْرَعَ أَبوبَكْرٍ وقبَّل بَيْنَ عَيْنَىِ الرَّسولِ ﷺ وهوَ يَبْكِى ويقُولُ:

ـ طِبْتَ حيًّا وميتًا يا رسُولَ اللَّه !

ثم خـرجَ إلى النَّاسِ بالْـمَسـجـد وصَعِـدَ الْـمِنْبَرَ فقالَ :

ـ مَنْ كانَ يعبُدُ اللَّهَ فإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَموتُ ،
ومَنْ كانَ يعبُدُ مُحَمَّدًا فإِنَّ مُحمدًا قدْ ماتَ !

ثم تَلاَ قولَهُ (تعالَى) :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... »

ولَمْ يكَدِ الصحَابةُ يَسْمعونَ هذه الآيةَ ، وكانَ مِنْ بينِهِمْ عُمرُ بْنُ الْخطَّابِ حتى قالوا :

ـ واللَّهِ ، لَكأَنَّنا لمْ نقرَأْ هذه الْآيةَ أوْ نَسْمَعْ بها مِنْ قَبْلُ !

وتذكَّرَ عمرُ بنُ الخطابِ خطَأَهُ حينَ زَعَمَ أَنَّ الرسولَ ﷺ لا يَموتُ إلا بعدَ أَنْ يُظْهِرَ اللَّهُ

أمْرَ الْمُنافِقينَ . فصعِد عُمَرُ الْمنبرِ وقال :

ـ أمَّا بعْدُ ، فإنى قلْتُ لكم أَمْسِ مقَالَةً ، وإنَّها لم تكُنْ كما قُلْتُ ، وإنى واللَّهِ ما وجَدْتُ الْمقَالَةَ التى قُلْتُ لكمْ فى كتابٍ أنْزَلَهُ اللَّهُ ولا فى عَهْدٍ عَهِدَهُ إلىَّ رسولُ اللَّه ﷺ حتى نَموتَ نحْنُ قَبْلَهُ ، فاخْتارَ اللَّهُ (عزَّ وجَلَّ) لرسولِه الذى عنْدَهُ على الَّذى عِنْدَكُمْ . ثم أوصَى الْمُسلمينَ قبْلَ أنْ ينزِل منْ علَى الْمنبَرِ بقَوْله :

ـ وهذا الْكتابُ الذى هدَى اللَّهُ به رسُولَهُ ، فخذُوا به تهتَدُوا لِما هُدِى له رسُولُ اللَّهِ ﷺ .

إِنَّ الْمَوْتَ هو نِهايَةُ كلِّ حَيٍّ ، فكلُّ الناسِ يَموتُونَ حتى الأَنْبِياءُ والرُّسلُ ، ولا يبْقَى إلاَّ اللَّهُ (تعالَى) الْحَيُّ الْباقى الذى لا يَموتُ .

وهذهِ الْحَقيقَةُ تملأُ قلْبَ الْمُسْلمِ بالشَّجاعَةِ والإِقْدامِ ، وتغْرِسُ فيه التَّضْحِيَةَ والْفِداء للَّهِ ودِينِ اللَّهِ ، لأَنَّ حياتَهُ ومَماتَهُ بيدِ اللَّه وَحْدَهُ .

كذلكَ فإِنَّ الإِشاعَات التى يُرَوِّجُ لها أَعْداءُ الإِسْلامِ منْ وقْتٍ لآخَرَ بِغَرضِ مُحارَبَةِ الإِسْلامِ والْمُسلمينَ ، يجبُ أَنْ نكونَ على يقظَةٍ منها ، ومَهْمَا كانتْ هذهِ

الإِشاعَاتُ لا ينبَغِى أَنْ نتأَثَّرَ بها ، لأَنَّ الإِسلامَ دِينُ الْكَمالِ والْجلالِ والْجمالِ الذى ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِلْعالَمين .

قالَ تعالَى :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا » [سورة المائدة .٣]

اللَّهُمَّ لا تَفْتِنَّا فى دِينِنا ، وصلِّ على نَبيِّكَ فى الأَوَّلِينَ وصَلِّ عليهِ فى الآخِرِين ، وصلِّ عليهِ فى الْملإِ الأَعْلَى إلى يوْمِ الدِّينِ . .

رقم الإيداع ٧٩٣١٠ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى : ٩ - ٧٦٤ - ٢٦٦ - ٩٧٧